القلب المسكين

ـ ٤ ـ

أمَّا صاحب القلب المسكين ؛ فما كاد يرى الحبيبة وهي مقبلةٌ تتيمَّمنا حتَّى بغتَه ذلك ، فساوره القلق ، واعتراه ما يعتري المحبَّ المهجور ؛ إذا فاجأه في الطَّريق هاجرُه ؛ أرأيت مرَّة عاشقاً جفاه الحبيب وامتنع عليه دهراً لا يراه ، وصارمه[1] مدَّةً لا يكلِّمه ، فنزع نومَه من ليله ، وراحته من نهاره ، ودنياه من يده ، وبلغ به ما بلغ من السُّقم والضَّنى ، ثمَّ بينا هو يمشي ، إذ باغتَه ذلك الحبيب منحدراً في الطَّريق ؟

إنَّك لو أبصرت حينئذٍ قلبَ هذا المسكين ؛ لرأيته على زلزلةٍ من شدَّة الخفقان ، وكأنَّه في ضرباته متلعْثمٌ يكرِّر كلمةً واحدةً : هي ، هي ، هي !

ولو نفذتَ إلى حسِّ هذا البائس ؛ لرأيته يشعر مثل شعور المحتضَر : أنَّ هذه الدُّنيا قد نفتْه منها !

ولو اطَّلعت على دمه في عروقه ؛ لأبصرته مخذولاً ، يتراجع كأنَّ الدَّم الآخر يطرده .

إنَّها لحظةٌ يرى فيها المهجور بعينيه : أنَّ كلَّ شهواته في خيبةٍ ، فيردُّ عليه الحبَّ مع كلِّ شهوةٍ نوعاً من الذُّلِّ ، فيكون بإزاء الحبيب كالمنهزم مئة مرَّةٍ أمام الَّذي هزمه مئة مرَّةٍ .

لحظةٌ لا يشعر المسكين فيها من البغتة ، والتخاذل ، والاضطراب ، والخوف إلا أنَّ روحه وثبت إلى رأسه ، ثمَّ هوت فجأةً إلى قدميه !

* * *

غير أنَّ صاحبنا نحن لم يكن مهجوراً من صاحبته ، ولكن من عجائب الحبِّ : أنَّه يعمل أحياناً عملاً واحداً بالعاطفتين المختلفتين ؛ إذ كان دائماً على حدود الإسراف ما دام حُبّاً ، فكلُّ شيءٍ فيه قريبٌ من ضدِّه ، والصِّدق فيه من ناحيةٍ مهيَّأةٍ

---

(١) « صارمه » : صَرَم فلاناً : هجره .

دائماً لأن يقابل بتهمة الكذب من النَّاحية الأخرى ، واليقين مُعَدٌّ له بالشَّكِّ بالطَّبيعة ؛ والحبُّ نفسه قضاءٌ على العدل ، فإنَّه لا يخضع لقانونٍ من القوانين ، والحبيب ـ مع أنَّه حبيبٌ ـ يخافه عاشقه من أجل أنَّه حبيبٌ !

وقد يصفرُّ العاشق لمباغتة اللِّقاء ، كما يصفرُّ لمباغته الهجر ، وهذه كانت حال صاحبنا عندما رآها مقبلةً عليه ، وكان مع ذلك يخشى إلمامتها به ، توَقِّياً على نفسه من ظنون النَّاس ، وأكثر ما يحسنه النَّاس هو أن يسيئوا الظَّنَّ ، وهو رجلٌ ذو شأنٍ ضخمٍ ، ومقالة السُّوء إلى مثله سريعةٌ إذا رُئي مع مثلها ، وكأنَّها هي ألمَّت بكلِّ هذا ، أو طالعها به وجهه المتوقِّر المتزمِّت ، فعدلت عن طريقها إلينا ، ووقفت على رئيس فرقة الموسيقا ، وما بيننا وبينها إلا خطواتٌ ، ورأيتها قد هيَّأت في عينيها نظرةً غاضبتنا بها ، ثمَّ لم تلبث أن صالحتنا بأخرى !

وكأنَّها ألقت لرئيس الموسيقا أمراً ليتأهَّب لدورها ، ثمَّ همَّت أن ترجع ، ثمَّ عادت إليه ، فجعلت تكلِّمه ، وعيناها إلينا ، فقال صاحبنا ـ وأعجبه ذلك من فعلها ـ : إنَّها نبيلةٌ حتَّى في سقوطها !

ولا أدري ماذا كانت تقول لرئيس الموسيقا ، ولكنَّ هذا الرجل لم يَظهر لي وقتئذٍ إلا كأنَّه تلفونٌ معلَّقٌ !

* * *

كانت عيناها إلى صاحبها لا تنزلان عنه ، ولا تتحوَّلان إلى غيره ، ولا تسارقه النَّظر ، بل تغلبه عليه مغالبةً ؛ ورأيته كذلك قد ثبتت عيناه عليها ، فخيِّل إليَّ : أنَّ هذا الوجود قد انحصر جماله بين أربعة أعينٍ عاشقةٍ ؛ وكانت تطارحه ؛ ويطارحها كلاماً مخبوءاً تحت هذه النَّظرات ، قد نسيا ما حولهما ، وشعرا بما يشعر به كلُّ حبيبين إذا التقيا في بعض لحظات الرُّوح السَّامية : أنَّ هذا العالم العظيم لا يعمل إلا لاثنين فقط : هو ، وهي .

وكان فمُها الجميلُ لا يزال يُساقط ألفاظَه لرئيس الموسيقا ، وكأنَّها تسردُ له حكايةً مرويَّةً ، أو يعارض بحافظته كلاماً تحفظه من كلام التَّمثيل ، أو الغناء ؛ فهي تتحدَّث ، وعيناها مفكِّرتان شاخصتان ، فلم ينكر الرَّجل هيئتها هذه ؛ ولكن كيف كانت عيناها ؟ .

لقد أرادت في البدء أن تجعل قوَّةَ نظراتها كلاماً ، حتَّى لحسبتُ : أنَّ هذه

النَّظرات الأولى تهتف من بعيد : أنتَ ، يا أنتَ !

ثمَّ بدأ في عينيها فتور الظَّمأ ، ظمأ الحبِّ المتكبِّر المتمرِّد ؛ لأنَّه حبُّ المرأة المعشوقة ، ولأنَّ له لذَّتين ، إحداهما في أنْ يبقى ظمأً إلى حينٍ .

ثمَّ أرسلت الألحاظَ الَّتي تتوهَّج أحياناً فوق كلام المرأة الجميلة في بعض حالاتها النَّفسيَّة ؛ فتضرم في كلامها شرارةً من الرُّوح تُظهر الكلام كأنَّه يُحرق ، ويحترق .

ثمَّ توجَّعت النَّظرات ، لأنَّها تصلها بالرَّجل الَّذي لا يشْبه الرِّجالَ ، فلا يستوهب خضوعها ، ولا يشتريه ؛ والرَّجل كلُّ الرَّجل عند مثل هذه المرأة هو الَّذي لا يشبه الباقين ممَّن تعرفهم ، فإذا أحبَّها ، فكأنَّما أحبَّها عذراء خَفِرةً لم تُمسَّ ، وكأنَّه من ذلك يصِلها بماضيها ، وطهارتها ، وحيائها ، وما لا يمكن أن تتمثَّله إلا في مثل حبِّه .

ثمَّ ذبلتْ عيناها الجميلتان ، وما هو ذبول عيني امرأةٍ تنظر إلى محبِّها ؛ إنَّه هو استسلام فكرها لفكره ، أو عنادُ معنىً فيها لمعنىً فيه ، أو توكيد خاطرةٍ تحتاج إلى التَّوكيد ، ومرَّةً هو كقولها : لماذا ؟ وتارةً هو كقولها : أفهمت ؟ وأحياناً ، وأحياناً هو انتهاء مقاومة .

* * *

وتمَّت الحكاية المرويَّة الَّتي كانت تلقيها للتليفون . . . فكرَّت راجعةً إلى المسرح بعد أن صاحت نظراتها مرَّة أخرى كما بدأت : أنت ، يا أنت . . . !

فقلت لصاحبنا : ويحك يا عدوَّ نفسه ! لو اختار الشَّيطان عينين ساحرتين ينظر بهما إليك نظر الفتنة ؛ لما اختار إلا عينيها ، وفي وجهها ، في هيئتها ، في موقفها أراك مع هذا كمنتظرٍ ما لا يوجد ، ولا يمكن أن يوجد ، وأراها معك في حبِّها كالحيوان الأليف ؛ إذا طمع في المستحيل .

قال : وما هو المستحيل ؛ الذي يطمع فيه الحيوان الأليف ؟

قلت : ذلك حين يطمع في أن تكون له حقوقٌ على صاحبه فوق الألفة ، والمنفعة .

قال : لقد أغمضتَ في العبارة ، فبيِّنْ لي شيئاً من البيان .

قلت : هب كلبةً تألف صاحبها ، وتحبُّه ، فهي له ذليلةٌ مطواعٌ ، ثمَّ يبلغ بها الحبُّ أن تطمع في أن يكون لها تمام الشَّرف ، فلا يقول صاحبها عنها : هذه كلبتي ، بل يقول : هذه زوجتي .

قال : ويْ منك ! ويْ منك[١] ! لقد ضربتَ على رأس المسمار كما يقولون : هذا هو المستحيل الذي بيني وبينها ، هذا هو المثل . يا لفظ الحلوى ! يا لفظ الحلوى ! لو كررتك بلساني ألف مرَّةٍ فهل تضع في لساني طعمها ؟!

قلت : خفِّض عليك يا صاحب القلب المسكين ! فلست أكثر من عاشقٍ .

قال : بل أنا مع هذه أكثر من عاشقٍ ؛ لأنَّ في العاشق راغباً ، وفيَّ أنا راهبٌ ، وفيه الجريء ، وفيَّ المنكمش ؛ ويغترف الغرفة من الشَّلال المتحدِّر ؛ فيحسوها ، فيرتوي . . وأغترف أنا الغرفة بيدي ، وأبقيها في يدي ، وأطمع أن تهدِرَ في يدي كالشَّلال . . أنا أكثر من عاشقٍ ، فإنَّه يعشق لينتهي من ألم الجمال ، وأعشق أنا لأستمرَّ في هذا الألم ! .

هذه ، هذه ، العجيب يا صديقي ! أنَّ خيال الإنسان يلتقط صوراً كثيرةً من صور الجمال تجيء؛ كما يتَّفق ، ولكنَّه يلتقط صورةً واحدةً بإتقانٍ عجيبٍ ، هي صورة الحبِّ ؛ فهذه ، هذه .

ألم أقل لك : إنَّ إبليس هنا في غير حقيقته الإبليسيَّة ، ولم تفهمْ عنِّي[٢] ؟ فافهم الآن : أنَّنا إنْ كنَّا لا نرى الملائكة ؛ فإنَّه ليخيَّل إلينا أنَّنا نراها فيمن نحبُّهم ؛ وما دام شرُّ الحبِّ يبدِّلُ الزَّمنَ والنَّفسَ ، ويأتي بأشياء من خارج الحياة ، فكلُّ حقائق هذا الحبِّ في غير حقيقتها .

هذه ، هذه ؛ لا أطلب في غيرها امرأةً أجملَ منها ، فهذا كالمستحيل ، ولكنِّي ألتمس فيها هي امرأةً أطهر منها ، وهذا كالمستحيل أيضاً : إنَّها أجمل جسمٍ ، ولكن وا أسفاه ! إنَّها أجمل جسمٍ للمعاني التي يجب أن أبتعد عنها ! .

* * *

---

(١) أي : عجب ، يتعجَّب من فطنته . (ع) .

(٢) مرَّ هذا المعنى في المقالة الثالثة . (ع) .

وسكت صاحبنا ؛ إذ رفعتْ ستارة المسرح ، وظهرت هي مرَّة أخرة ، ظهرت في زينةٍ لا غاية بعدها ، تمثِّل العروس ليلة جَلوتها ؛ ألا ما أمرَّها سخريَّةً منكِ أيَّتها المسكينة ! عروسٌ ، ولكن لمن ؟ .

كانت تبرُق على المسرح كأنَّها كوكبٌ دريٌّ ، نورُه نورٌ ، وجمالٌ ، وعواطف شعرٍ .

وأقبلت تتمايل بجسمٍ رَخْصٍ[1] ، ومسترسل الأعطاف ، يتدفَّق الجمال ، والشَّباب فيه من أعلاه إلى أسفله .

وأظهر وجهُها حسناً ، وأبدى جسمُها حسناً آخر ، فتمَّ الحسنُ بالحسن .

واقفةٌ كالنَّائمة ، فالجوُّ جوُّ الأحلام ، وكان الحبُّ يحلم ، وكان السُّرور يحلم ! .

مهتزَّةٌ كالموج في الموج . هل خُلقت روح البحر في جسمها المترجرج فشيءٌ يعلو ، وشيءٌ يهبط ، وشيءٌ يثور ، ويضطرب ؟ .

ثمَّ دقَّت الموسيقا بألحانها المتكلمة ، ودقَّت أعضاء هذا الجسم بألحانها المتحرِّكة ، وأحسسنا كأنَّ روح الحديقة جالسةٌ بيننا تنظر إليها ، وتتعجَّب . تتعجَّب من قوامها للغصن الحيِّ ، ومن بدنها للزَّهر الحيِّ ، ومن عطرها للنَّسيم الحيِّ .

أمَّا صاحب القلب المسكين . . .

* * *

---

(١) « رخص » : الرَّخص : النَّاعم .